

التجديد في الأدب

« حول مقال الأستاذ أحمد أمين »

للدكتور عبد الوهاب عزام

قرأت في « الرسالة » مقالا للاستاذ الفاضل احمد امين عنوانه « التجديد في الأدب » فرأيت آراء بيّنة استحسنتها ، وألقيت رأياً آخر لم أقبّله ، وقد همت أن أكتب مجالاً للاستاذ ثم بدا لي أن أرجىء الكتابة حتى يتم مقالاته ، فلما قرأت المقال الثاني زاد الخلاف بيني وبينه . ثم عرفت أنه سيتلبث قليلاً فلا يكتب عن هذا الموضوع في العدد الآتي ، فسارعت الى الكتابة وأنا اشعر أن الذي يجب الى مجادلة الأستاذ حبي واعظامي وتلمسي محادثته كلما وجدت اليها سبيلاً في المجالس أو في صفحات المجلات .

قابلت الاستاذ بعد أن قرأت المقال الأول فقلت : سأقتد بمقالك أو أشرحه . فقال مازحاً : قبل أن تقرأه ؟ قلت نعم . ذلك أني أنشأت أنا وصديقي الأستاذ العبادي في بعض الأسفار أبياتاً وسميناها « القصيدة المكتمة » وكتبتها الاستاذ فقال : لا أبالي هذا الكتابان ، وسأشرحها دون أن أراها . وأذكر أني قابلته مرة فقلت : « سؤال » فقال قبل أن يستمع الى سؤالي : « جواب » أتريد أن أجيب قبل السؤال أو بعده ؟ ولكن ليطمئن أستاذنا وليعلم أني قرأت مقاله قبل أن أكتب عنه ، وهو أمامي الآن أقرأه وأكتب ما يبدو لي فيه .

أعجبتني قول الاستاذ عن المجددين : « فاذا سألت المجددين ماذا يريدون بالتجديد ، وما ضروره وما مناحيه وماذا يقترحون أن يدخلوه على الأدب العربي ؟ فجمعوا في القول وأتوا بكلمات غير محدودة المعنى ولا واضحة الدلالة » وأنا أزيد على هذا أن التغيير ليس فضيلة ينبغي الحرص عليها والتنافس فيها والتفاني بها ، وإنما يستحسن التغيير أو التجديد حين تدعو الحاجة اليه . والكاتب النابغ اذا أحس الحاجة الى التجديد بدل وغيره وابتدع في غير صخب ولا سخرية ولا مباهاة ، ثم عرض على الناس نتاج رأيه ، وتمررة ابتكاره فيرضونها ، أو يجادلون في أمر وضحت معالمه واستبان حدوده . الكاتب المجدد حقاً هو الذي يمضي في سبيله قدماً ، مبتدئاً عن آرائه ومشاعره على الأسلوب الذي يبيّن بهذا البيان والخطة التي يؤثرها ويفصلها لا يتكلف الاغراب والشذوذ ليقال انه مجدد . والشاعر

زاد تلبك معدني ، فزادت من الحياة تقمّي !

فياموت زر ان الحياة ذميمة ويانفس جدى ان دهرك هازل

تناولت دواء هاضماً فأخذت أهش للحياة وأبش ، وبدأت أنظر الى العالم بوجه منطلق ، ومحياً منبسط — ها هو ذا قد تألقت صفحته ، وأسفرت غرته ، وانقشعت غمامته .

الحق ان العالم جميل ، فهذا نسيم يعطر الجو بعرفه ، وبجبي النفوس برقه و لطفه ، وهذا الربيع زهه العين ، ومنطق الطير . وهذه الحديقة عقد منظوم ، ووشى مرقوم .

أصبحت الدنيا تروق من نظر بمنظر فيه جلاء للبصر والارض في روض كأفواف الخير تبرجت بعد حياء وخفر كل شيء حولي يضحك ! ليس في الامكان أبدع مما كان .

قلبي وثاب الى ذا وذا ليس يرى شيئاً فيأباه ييم بالحسن كما ينبغي ويرحم القبح فيهواه ! ان الحياة غنية بالذائد ، وليست الآلام فيها الا توابل تهيء لاستمراء اللذة .

والشوك في شجرات الورد محتمل

ما الدنيا الا قيثارة يوقع عليها شجي الالحان ! أو مائدة شبيهة صفت عليها صنوف الألوان !

وقد تحمد الشمس الصباح بضوئها

تفاوتت الأنوار والكل رائق

ان كان في الدنيا سخر وهذيان ، فكن فيلسوف الضاحك ، ولا تكن فيلسوف الباكي !

وان كانت الدنيا ألقاً وأحاجي ، فكم نجح العقل في حلها واستجلاء غامضها . وكل يوم تتسع دائرة المعلوم ، وتضيق دائرة المجهول . والعقل يلذه البحث ولو لم يصل ، ويشعر بالغبطة ولو لم ينل . وفي نجاحه فيما أدرك ، عده له فيما لم يدرك .

رحمك اللهم ! إن كان درهم من دواء هاضم يغير وجه العالم ويحيل السواد بياضاً ، والشقاء سعادة ، والقبح جمالاً ، والظلام نوراً ، والحزن سروراً ، فأين الحق !

المطبوع هو الذي يسير على فطرته مخلصاً لنفسه مبيئاً عنها لا يبالي أن يكون قد لزم الجادة المطروقة أو حادتها، ثم يعرض على الناس شعره فيما اختار من موضوع وأسلوب في الوزن وإيقافية . فاذا ثار الناس عليه جادل عن نفسه وأوضح حجته . والأدب فيما أحسب يؤثر فيه الاستطراف، فقد يغير الشاعر أسلوباً طال عليه العهد وملة الناس ، وقد يرجع الناس إلى الأسلوب المهجور بعد حين فيستطرفونه . فالتغيير في الأدب واسع المجال ولكن ينبغي أن تحس الحاجة إليه وتستبين سبله .

الأدب العربي تقلب في أطوار مختلفة، وابتدعت فيه بدع كثيرة ولكن لم نسمع أن المبتدعين مهدوا لابتداعهم بمعرفة كلامية في القديم والجديد ، نظم ابن المعتز موشحاً ، واقتن المغاربة في الموشحات افتناناً خرج بها عن الأوزان والقوافي المألوفة ، ومضى الناس على هذا ولم يمد لهذا الابتداع بثمرة في التجديد ، ولم يكن للمجددين من حجة إلا أن ألقوا إلى الناس موشحاتهم تخرج لنفسها . وكذلك نظمت قصص كليلية ودمنة وغيرها في القافية المزدوجة ولم يكن هذا معروفاً من قبل ، وكتب بديع الزمان الهمداني مقاماته وهي طريقة جديدة، وما عرفنا أن تقدم هذا وذلك جدال أجوف ذو دوى كالذي نسمعه في هذا العهد. والمنتجب ذهب في الشعر المذهب الذي ارتضاه ثم قال :
أنام ملء جفوني عن شواردها

ويسهر انقوم جراها ويختصم

المعري ملأ شعره بالفلسفة وأمور لم يألفها الشعر من قبل وكتب رسالة الغفران على غير مثال فادعا إلى طريقته ولا جادل فيها أحداً وما أحسب لمرتبي الشاعر الفرنسي حين نشر «التأملات» (١) قد أجهد نفسه في الدفاع عن نفسه ، والهجوم على مخالفيه . هذه هي الطريقة المثلى التي تجنبنا الممارك الضالة والكلام المتهاثر ، والحجج المبهمة ، حين يدور الجدل على أمر مشهود بين يمد الكلام ، ويقصر النزاع ، ثم يكون المثال الجديد حجة لنفسه تسد السبل على المعاندين والمغالطين . هذه هي الطريقة المثلى . وأما الجمعية بنير طحن ، أو الجمعية في طحن الكلام ، وإثارة الخصام فخاية على القارئ ، ومضلة للباحثين .

إنما يكتر تحدث الانسان عن صحته حين يعتل ، وأما الصحيح القوي فهو عامل جاهد ، ماض في سبيله لا يقيس كل خطوة بنصح الأطباء ، ولا يزن كل أكلة بما أعطى من الدواء . وكذلك أعجز الناس عن الابتكار والاتقان أكثرهم ضوضاء وخبثاً وسخرية وافتراء وادعاء

أعود إلى مقال الأستاذ أحمد أمين ، بعد أن ند القلم في الكلام عن التجديد والمجددين ، وأترك للأستاذ المقدمة التي ذكر فيها « العناصر الثابتة » في الأدب و « العناصر المتغيرة » وأتصدى لكلامه في تجديد الألفاظ . هو يرى أن التجديد فيها على ضربين : الأول « اختيار الألفاظ التي تناسب العصر ، ورضائها ذوق الجيل الحاضر » وضرب الأستاذ مثلاً كلمة هيبخ وبعاق وكنهور . وأنا لا أريد أن أناقش الأستاذ في الامثلة فقد قرأنا في كتبنا القديمة أن « المناقشة في المثال ليست من دأب المحصلين » ولكني أخالفه فيما سماه ذوق العصر وأعرض نفسي لحكمه حين يقول : « وهذا بديهي لا يحتاج إلى إطالة . وكل من جهل هذه الحقيقة لا يفلح أن يكون أديباً » أخالفه في أن يجعل الذوق حكماً ولا سيما ذوق الجيل الحاضر على قصوره في اللغة والأدب . وأخشى أن يقتصر هذا الذوق على ما ألف من الكلمات فيعد كل كلمة غير مألوفة نابية عن الذوق ثقيلة على السمع ، فإذا أراد كاتب أن يدل على الهواء بين السماء والارض فقال « السكاك » أو « السمهي » ضحك منه أهل الذوق . وإذا أراد أن يدل على الهواء بين جبلين فقال « الننف » سخروا منه ، وإذا قال صفتت الباب وأجفته بمعنى أعمت اغلاقه أو تركت فيه فرجة « رجلته » اشماز الذين لم يسمعوها بهذه الكلمات ، على أن البيان في حاجة إليها . ان الذوق يسقم ويصح . والأديب النابغة يستملي فطرته فيلأم الذوق العام أو يسيره حيث يشاء ولا يقف نفسه أسيراً تتصرف به الأذواق . ان أمر الألفاظ أجل وأخطر من أن يحكم فيه الذوق وحده . ان الحاجة خلافة الألفاظ ومبقيتها ، والحاجة لا تنال بالأذواق . ففي كل أمة وكل جيل أن يأخذ من لغته الألفاظ التي يحتاج إليها ويخلق الألفاظ التي لا يجدها ، غير مبال بالغرابة أو الثقل الذي يبدو أول الأمر ، فان الاستعمال جدير باستثناس الكلمة والملاءمة بينها وبين أذواق الناس . وكم من كلمة أجنبية ثقيلة استعملها الناس فألقوها ، ولم يجادلوا فيها . فبعض كتابنا يقول البر وباجندا والديمقراطية والارستقراطية والميتافيزيقية على بعضها عن طبيعة لغتنا وأوزانها ، أنه أعرف أن القدماء من أدبائنا غلوا في الظرف وأخذوا على المنتجب وغيره كلمات سموها نابية أو حوشية . وقد تجلى هذا الظرف في كتاب المثل السائر وغيره ولكن هذه الرقة لا يقيم لها وزن عند الحاجة الملحة . بعض الألفاظ اللغة محاكاة الأصوات ، وبعضها فيما أظن ، تحيل المعاني في الأصوات : حاكت اللثة صوت الريح والرعد والطير وأنواع الحيوان ونحوها ومثلت المعاني الأخرى

في ألفاظ تلامها - فليس لنا أن نفر من الالفاظ الشديدة وتجنّبها إن أردنا أن ندل على المعاني الشديدة . فالتقليل والحقف والكثيب والجمود وأشباهاها ملامّة لمعانيها، ولا بد من استعمالها لنل على هذه المعاني . ولكن الذوق الحاضر يؤثر الالفاظ البينة الخفيفة الجرس المألوفة، ويترك مثل هذه الالفاظ على شدة الحاجة إليها . ينبغى أن تؤثر الالفاظ القوية الشديدة لمعانيها، الالفاظ الخفيفة لمعانيها، دون إنصات الى حكم الأذواق، بل ينبغى أن يعمل الأديب لحياء الالفاظ الطبيعية الشديدة كلما نزع بالامة رخاوة الحضارة الى نسيانها، وينبغى أن تعالج اللغات بالالفاظ القوية التي تبدو ثقيلة غير مألوفة، كما يعالج ترف الحضارة بضروب السياحات والرياضات الشاقة . والاستعمال جدير بتدليل كل صعب، واستئناس كل وحشى . يجب أن يحكم موضوع الكلام لاذوق المتفرّين . فالشاعر في القاهرة أو باريس اذا وصف الجبال أو الحروب، وهى بعيدة من إلفه، ساغ له أن يأتي بالالفاظ التي تثير الروعة والهيبة . ان اللغات العامية في البلاد العربية نتيجة الأذواق المختلفة، ولغة الأدب الموحدة في هذه البلاد نتيجة مقاومة هذه الأذواق بالتعليم، ورفعها الى مستوى أرفع وأقوم .

أضرب للاستاذ الفاضل مثلاً قول مسلم بن الوليد في وصف الصحراء ومجهل كاطراد السيف محتجز

عن الادلاء مسجور الصياخيد

شمسى الرياح به حسرى موهبة

حيرى تلوذ بأكناف الجلاميد

مارأيه في « مسجور الصياخيد » و« أكناف الجلاميد »؟ أهى ملامّة لذوق الجيل الحاضر؟ وهل يرى غيرها أجدر بكانها في هذا الشعر؟ انها لا ريب حسنة في موقعها، بالغة، ما أريد بها من وصف الصحراء حين تشتعل فيها الهواجر. فان كان علم الجيل الحاضر باللغة ينفر به عن أمثال هذه الكلمة فليس على الكاتب أن يتحرز عنها، ولكن على الناس أن يألفوها . ثم ماذا يرى الاستاذ في قول ابن هاني الأندلسي :

خياضهم من كل مهجة خالغ

وخيامهم من كل لبدة قسور

من كل أهت كالح ذى لبدة

او كل أبيض واضح ذى مغفر

طردوا الأوبد في الفدافد طردهم

للأعوجية في مجال العشير

ماذا يرى إن كان جهل جيلنا الحاضر باللغة ينفر بذوقه من قسور وأهت والالء وأبدوالفدافد والأعوجية . وهل ينبغى أن يهجر قول الشريف الرضى :

من القوم حلوا بالربى وأمدم

قديم المساعى والعلاء القدامس

تحلمهم دار العدو سفارهم

وترعيم الأرض القنى المداعس

بهاليل أزوال، بكل قبيلة

ملاذع من نيرانهم ومقابس

أو ينبغى أن يهجر ذوق الجيل الحاضر إن تفر من مثل هذا الشعر؟

أرى أن حاجة الكتاب الى الابانة والاعراب والابداع تسوغ لهم أن يتخيروا من اللغة ما يشاءون، ويطبّعوا ذوق الأمة كما يبتغون، وأرى أن الذوق ربما يكون وليد الجهل وفساد الطبع، والاستكانة الى كل هين يسير، والركون الى كل سفساف مبتذل .

لذوق الحكم حين يتسع العلم باللغة والادب، وتعرض ألفاظ عدة لمعنى واحد فيختار الذوق واحداً منها . وللأختيار أسباب كثيرة، فقد يختار « هيبخ وبعاق وكنهور » وقد يختار غيرها . وانما الفظظة والثقل أن يعمد الكاتب الى كلمات غير مألوفة فيؤثرها على المؤلف إغراباً وتعمقاً وشذوذاً ومخالفة للذوق دون جدوى .

ثم يقول الاستاذ: « لذلك أصبحت في معاجم لغتنا ألفاظ كثيرة ليس لها قيمة إلا أنها أثرية تحفظ فيها كما تحفظ التحف في دار الآثار » وأنا أقول بعد الذى قدمت : ما أشد حاجتنا الى كثير من هذه الالفاظ المهجورة، فانها مجدية على من يعرفها ويستعملها . وعسى أن تصير ملامّة لذوق الجيل الحاضر حين يعرفها فيقضى بها حاجته من الابانة عما يريد .

ربما يقول الاستاذ بعد قراءة هذه الكلمة . ان الذوق في رأيى هو الذوق الذى تخلقه الحاجة والمعرفة والتمكن من اللغة والادب، وبلوغ الغاية مما يزيد لا الذوق الذى يكون على العلات في كل حين . فان يكن هذا الذى أراده أستاذنا فقد شرحتة وبينته وبررت بوعدى حين لقيته فقلت : « سأنقد مقالك أو أشرحه . وأما مقال الاستاذ الثانى وهو أجدر بالمجادلة فوعدنا بنقده « الرسالة الآتية »